الفصل الخامس

أغراض القسم ودواعيه

أ ـ أغراضه

قال الطوسي : القسم جملة من الكلام يؤكد بها الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ، أو في حيز المتحقق، على طريقة : بالله إنه لكذا [1].

وصرح الرازي: إيراد القسم للتأكيد المحض، كما هو عادة العرب [2].

وصرح ابن القيم: قد يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، وقد يراد به تحقيق المقسم عليه [3].

---

(1) التبيان ٤/ ٤١٥ ، ٥٠٦/٩ ، ١٩٠/١٠ . وانظر الزركشي ٤٠ . القطان ٣٠٠ . السامرائي ٥٦ .

(2) مفاتيح ٢٦/ ١٠٣ . الفراهي ٥ـ٧،٩ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ . المدخل ١/ ٥٠٠ ، ٥٠٤ .

(3) التبيان ٤٦ . معترك ١/ ٤٥٣ . الإتقان ٢/ ١٧١ . ونسبه للسيوطي : القاضي ٨٤ . وأتى به غير منسوب الآلوسي لعبد الحميد ٢٤٥ . قمحاوي ٣/ ٢٢ . رضا ١٦٤ .

وقال الزركشي: إنما جيء بالقسم لتوكيد المقسم عليه [1].

وقال السيوطي : إقسام الله لإقامة الحجة وتأكيدها [2].

ورأت د . عائشة عبد الرحمن أن القسم يأتي في مقام التوثيق لما يسبق إنكاره، أو الإقرار به [3].

وأعلن د . بكرى شيخ أمين : القسم أفضل المؤكدات [4]، ود . عبد الله محمود شحاتة : القسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وهو ـ في كلام الله ـ لتأكيد الحكم ، وتقوية الحجة، وسوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه [5] ؛ ود. محمد بكر إسماعيل : أسلوب القسم في اللغة طريق من طرق توكيد الكلام ، وإبراز معانيه ومقاصده، على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين. وإذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك في كلامه، أكد له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها القسم [6] .

---

(١) البرهان ٣/ ٤٤ .

(٢) معترك ٣/ ٤٤ .

(٣) الإعجاز ٢٢٦ .

(٤) التعبير ٢٤٦ .

(٥) علوم ٢٧١ ـ ٢ .

(٦) دراسات ٣٦٣ .

ب ـ دواعيه

يبدو أن هناك من استنكر أقسام القرآن. وقال : ما معنى القسم منه ، سبحانه ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار؛ وإن كان لأجل الكافر، فلا يفيده .

وتصدى أبو القاسم القشيرى للإجابة فقال : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها. وذلك أن الحكم يُفصَل باثنين : إما بالشهادة، وإما بالقسم. فذكر ـ تعالى ـ النوعين حتى لا يبقى لهم حجة [(١)].

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [(٢)] صاح قائلا : من الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين [(٣)] .

وتصدى له الزمخشرى فقال : فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه . فهبْ أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان، وأقسم عليهم جهد القسم ، فيمينُ من هو فى معتقَدهم مُفْتر على الله كذبا، كيف تكون مصححةً لما أنكروه ؟

وأجاب : هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يُتْبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة، وهى قوله ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ [(٤)]. فقد وضع الله فى العقول، وركّب فى

---

(١) الزركشى ٣/ ٤١ . معترك ١/ ٤٥٠ . الإتقان ٢/ ١٦٩ . المدخل ١/ ٥٠١ . لمحاوى ٣/ ٢٢ . خليف ٩٦ .

(٢) سورة الذاريات ٢٣ .

(٣) الزركشى ٣/ ٤١ . معترك ١/ ٤٥٠ . الإتقان ٢/ ١٦٩ . المدخل ١/ ٥٠١ . لمحاوى ٣/ ٢٢ . خليف ٩٦ . وانظر الزمخشرى ٤/ ٤٠٠ .

(٤) سورة سبأ ٤ .

الغـــرائـز وجـــوب الجزاء، وأن المحسن لابد له من ثواب، والمسيء لابد له من عقاب [1].

وأورد فى موضـــع آخـــر خـــبر الأعـــرابى، مرويا عن عبد الملك بن قريب الأصمعى (١٢٢ ــ ٢١٦/ ٧٤٠ ــ ٨٣١) [2].

وأورد الرازى إجابة الزمخشرى ثم ذيلها بقوله : الذى أقوله أنا هو أن الدليل المذكـــور فى قوله : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [3] أظهر . وذلك لأنه إذا كان عالما بجميع الأشياء، يعلم أجزاء الأحياء، ويقدر على جمعها، فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق ، فتكون واقعة [4].

كذلـــك تصـــدى له الـــرازى فى أكثر من موضع فقال ذات مرة : الناس طبقات. فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقى، ومنهم من لاينتفع بالبرهان الحقيقـــى بـــل ينـــتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم . فإن الأعرابى الذى جـــــاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوته ورسالته، اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم. فكذا هاهنا [5].

وقال ــ وهو بصدد الإجابة عن فائدة القسم فى إخبار النبى ﷺ عن البعث مـــع إنكارهم رسالته ــ قال : إنهم ــ وإن أنكروا الرسالة ــ لكنهم يعتقدون أنه

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٧ ــ ٨ . الرازى ٢٥ / ٢٠٨ .

(٢) الكشاف ٤ / ٤٠٠ ..

(٣) سورة سبأ ٣

(٤) مفاتيح ٢٥ / ٢٠٨ .

(٥) مفاتيح ١٧ / ٩٠ .

يعتقد ربه اعتقادا لا مزيد عليه . فيعلمون أنه لا يُقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدقُ هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفى اعتقاده [1].

وأعاد ـ فى موضع ثالث ـ صياغة السؤال الذى واجهه القشيرى ، فجعله: الحَلف من الله غير لائق من وجوه :

الأول : أن المقصود من القسم إما إثبات المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر . الأول باطل لأن المؤمن مقرّ به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، والمكذب لا يصدق مع القسم. فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات [2].

الثانى : إثبات المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء [3].

وكان الجواب عند الرازى من وجوه أيضا :

الوجه الأول : أنه ـ تعالى ـ قرر هذه المطالب العالية فى سائر السور بالدلائل اليقينية . فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها. فذكر القسم تأكيدا لما تقدم ، لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف طريقة مألوفة عند العرب [4].

---

(1) مفاتيح ٣٠ / ١٢ .

(2) مفاتيح ٢٦/ ١٠٣ . الرازى لعبد الحميد ٢٥١ . وأتى به غير منسوب : القرطبى ١/ ١٥٦ . الزركشى ٣/ ٤١ . معترك ١/ ٤٤٩ . الإتقان ٢/ ١٦٩ . الفراهى ٤. القاضى ٨٤ . المدخل ١/ ٥٠٠ . قمحاوى ٣/٢٢ . رضا ١٦٥ .

(3) مفاتيح ٢٦/ ١٠٣ . الرازى لعبد الحميد ٢٥١ .

(4) مفاتيح ٢٦/١٠٣ . الفراهى ٥ . الرازى لعبد الحميد ٢٥١ . وأورده غير منسوب: القرطبى ١/ ١٥٦ . معترك ١/ ٤٤٩ . الإتقان ٢/ ١٦٩ . بدوى ١٧٠ . القاضى ٨٤ . المدخل ١/ ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، إسماعيل ٣٧١ . ونسبه إلى السيوطى : خليف ٩٦ . رضا ١٦٥ .

الوجه الثانى : أنه ــ تعالى ــ لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قولــه : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الإله واحدا، وهو قوله : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [1] كأنه قيل : قد بينا أن النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الإلاه واحدا . فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد .

الوجه الثالث : أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام فى قولهم بأنها آلهة . فكأنه قيل : هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة إلى حيث يكفى فى إبطاله مثل هذه الحجة [2].

الوجه الرابع : أن الكفار كانوا ــ فى بعض الأوقات ــ يعترفون بكون النبى ﷺ غاليا فى إقامه الدليل . وكانوا ينسبونه إلى المجادلة، وإلى أنه عارف ــ فى نفسه ــ بفساد ما يقوله، وأنه يغلبهم بقوة الجدل لا بصدق المقال. فلم يبق طريق غير السكوت أو التمسك بالأيمان وترك إقامة البرهان .

الوجه الخامس : أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتعتقد أنها تدع الديار بَلاقع { خربة } . فلما أكثر النبى ﷺ من الأيمان بكل شريف، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا ، حصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبا، وإلا لأصابه شؤمها، ولناله المكروه فى بعض الأزمان .

الوجه السادس: أن الأيمان التى حلف الله بها كلها دلائل . . . . [3]

ولم يرض عبد الحميد الفراهى عن أقوال الرازى ، ونقض الوجوه التى أوردها واحدا بعد واحد .

---

(1) سورة الصافات ٤ ، ٥ .

(2) مفاتيح ٢٦ / ١٠٣ ــ ٤ . الفراهى ٥ ــ ٧ . الرازى لعبد الحميد ٢٥١ .

(3) مفاتيح ٢٨/ ١٦٦ ــ ٧ . الفراهى ٦ ــ ٨ . الرازى لعبد الحميد ٢٥٠ .

فاعترض على الوجه الأول بأن القرآن يناقضه، لأنك ترى القسم فى أوائل الوحى أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل .

وعلى الثانى : بأنه ساكت عن بيان حكمة الصور المتنوعة للقسم. فأى فائدة للعدول عن القسم بالله إلى القسم بهذه الأشياء .

وعلى الثالث : ووصفه بأنه سخيف جدا، كأنه ــ بعد ما اعترف فى الوجهين الأولين بأن القسم لا حجة فيه ــ قال هنا : إن مذهب الخصم كان جديرا بأن يجاب عنه بما ليس من الحجة فى شىء .

وعلى الرابع : بأن فيه خلطا بين الغث والسمين، ونقضا لما قال فى تفسير الصافات بأن القسم يتبعه الدليل، وإنما كان القسم لأجل التأكيد. والأمر كذلك، فإن القرآن لا يسكت على القسم .

فلو قال : لأن الدليل المحقق ربما لا ينجع فى الخصم ، إذا كان قليل المعرفة بالاستدلال، وقليل الاعتماد على نظره، أو متهما للمتكلم بخلابة بيانه ، فيحسن فى هذه الحالات شوب { خلط } الحجة باليمين ؛ فلو قاله هكذا لكان أقرب .

وعلى الخامس : بأنه أصاب فيما قال، لو لم يزد عليه ما قال من أن النبى ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف، كأنه أراد أنهم إذا أقسموا بشريف خافوا سخطه، إن كذبوا فى يمينهم به . وضعف هذا القول ظاهر فإن أقسام القرآن ربما تكون بما ليس فيه شرف . والقرآن يهدى إلى أن لا تخاف إلا الله. وأى شؤم يخاف من التين والزيتون ؟ ! ثم النبى ﷺ كان يبلغ القرآن من الله ، فالقسم منه ــ تعالى ــ وهو لا يخاف أحدا .

فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه، وقال إن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتخاف مغبتها، وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا، فإذا حلف أحد، أصغوا إليه ؛ كان أقرب إلى ما يجاب به .

وعلى الوجه السادس بأنه يكفى لدفع القول بأنه لا فائدة للقسم. ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه. وهذا ــ مع كونه ظاهرا فى بعض المواضع ــ كثيرا ما يحتاج إلى إمعان شديد . ولعله ــ لهذا السبب ــ لم يعتمد عليه إلا فى سورة الذاريات وفى بعض سور أُخَر [1].

وحين أراد الفراهى أن يعبر عن رأيه الخاص، نظر فى السلوك البشرى عامة . فأعلن أن الإنسان ربما يحتاج إلى تأكيد خبر أو وعد منه ، حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب، وتطمئن به نفسه ، لا سيما فى الأمور العظيمة. وهذه الحاجة التمدنية دعتهم إلى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد. فكان ذلك أصل قسمهم [2].

وأرجعه مناع القطان إلى اختلاف الاستعداد النفسى عند الفرد فى تقبله للحق، وانقياده لنوره . فالنفس الصافية التى لم تدنس فطرتها بالرجس ، تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها فى الانصياع إليه اللمحة والإشارة .

أما النفس التى رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل، فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها. والقسم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخللها البرهان المفحم؛ والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد [3].

كما أعاده إلى أعراف اللغة العربية . فإنها تمتاز بدقة التعبير، واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض. وللمخاطب حالات مختلفة، هى المسماة ــ فى المعانى ــ بأضرب الخبر الثلاثة : الابتدائى ، والطلبى ، والإنكارى .

---

(1) إمعان ٥ ــ ٨ .

(2) إمعان ١٤ . أمين ٢٣٧ .

(3) مباحث ٣٠٠ . أمين ٢٣٧ .

فقـــد يكـــون المخاطب خالى الذهن من الحكم ، فيلقى إليه الكلام غُفْلا من التأكيد. ويسمى هذا الضرب : ابتدائيا .

وقـــد يكـــون مترددا فى ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده . ويسمى هذا الضرب : طلبيا .

وقـــد يكـــون مـــنكرا للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفا. ويسمى هذا الضرب : إنكاريا .

والقســـم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه . وقد نزل القرآن للناس كافة . ووقف الناس منه مواقف متباينة . فمنهم الشاك ، ومنهم المـــنكر، ومنهم الخصم الألد . فالقسم ـــ فى كلام الله ـــ يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم فى أكمل صورة [1].

وروى د٠ يوســـف خليف أن السيوطى علل الأقسام بقرب العهد من العصر الجاهلى، وأن القرآن جرى على عادة العرب فى القسم . ورأى أن السببين اللذين ذكرهما السيوطى والقشيرى يكمل أحدهما الآخر[2] .

ورد انتشـــار القســـم ـــ فى المرحلة المكية ـــ إلى أن هذه المرحلة ـــ فى تاريخ الدعـــوة الإســـلامية ـــ هـــى التى شهدت حملات الرفض والإنكار لهذه الدعوة، والتشـــكيك فـــيما جـــاء به الدين الجديد من أمور غيبية جديدة على العرب ، لم يكونـــوا على استعداد لتقبلها، أو من أمور روحانية لم تهيئ لهم حياتهم المادية فرصة الاقتناع بها .

---

(١) مباحث ٣٠١ ـــ ٢ . وأتى به غير منسوب : إسماعيل ٣٦٣ . وانظر أمين ٢٤٦ .

(٢) دراسات ٩٦ .

وإذا لا حظنا أن القرآن ـ فى دوره المكى ـ كان يتعامل مع العرب تعاملا وجدانيا، فى محاولة لإثارة مشاعرهم وعواطفهم ، ردا على أسلوبهم الانفعالى العصبى فى التعامل معه، استطعنا أن نضيف سببا ثالثا لانتشار القسم فى الآيات المكية [1].

ويتضح من هذه الجولة أن الأقسام أرّقت المتكلمين من المفسرين خاصة من أمثال الزمخشرى والرازى، وأن السؤال عن قيمة هذه الأقسام وتسويغ صدورها من الخالق يواجه الواحد منهم بعد الآخر . ولذلك نجد الزمخشرى مثلا يتعرض للأمر مرتين، والرازى يسعى للإجابة عنه فى أكثر من موضع، وأفاض فى ذلك .

كذلك يتضح أن الفراهى مازال يتصدى للرازى، ويسعى ـ بحق أو باطل ـ إلى أن ينقض كل ما بنى .

ويتضح أن المحدثين اعتمدوا فى اجابتهم على زيادة المعرفة بالنفس البشرية، وما تتطلع إليه، وما تقتنع به . ولكننى أخالف د.يوسف خليف فى جعله القرب من العصر الجاهلى أحد دواعى الأقسام القرآنية .

---

[1] دراسات ٦٩ ـ ٦ .